

في رحيل الشاعر الفلسطيني البارز مرید البرغوثي



”كلما قالوا انتهى، فاجأتهم أنني ابتدأت“.

هكذا كانت قصائد مرید البرغوثي تتسلل إلينا، شلال من الحب في كل مفترق طرق يفيض أكثر ولا ينتهي، وبوح من بدايات لا نهاية لها، فكيف أنتهي؟

نرى على يديه رام الله، وزهرع من العالم الشاسع إلى ركن حلم دافء وهو ينادي ”استيقظ كي تحلم“، وفي معنى البعد الأكبر للعاشق الكبير فقد ”طال الشتات“ يا رضوى، فلجأ إليك مرید من حزنه وهو يحن لموطنه الأصلي ”ضحكتها“، فغادرتنا مساء يوم الأحد الحزين 14 من فبراير/شباط 2021.

رحل شاعر فلسطين والجمال، ابن القرن الماضي الذي نأى عن كوابيس الخوف والسلطة وتمسك بالميادين اليقظة الحالمة وهو يتخطى الجدار المؤلم في أرضه مع محمود درويش وغسان كنفاني وطرقات مليئة بالانتفاض والبحث الدائم عن قشة ينجو بها الغريق.

مرید البرغوثي شاعر فلسطيني ولد عام 1944، في قرية دير غسانة قرب رام الله بالضفة الغربية حيث درس حتى الثانوية، ولحبه للأدب التحق بجامعة القاهرة، حيث درس هناك الأدب الإنجليزي وتخرج في العام المشؤوم 1967 حين احتلت ”إسرائيل“ الضفة الغربية وصادرت حقوق الغائبين عن أرض رام الله، ومُنعوا من العودة إليها.

بدأت رحلته في المنفى، يقاسمه الشعر في الألم والبحث عن معنى الوجود، وصيغت تجربته الشعرية بالكثير من الحذر، ففي الوقت الذي كان فيه مرید حُرًا يعبر عن رأيه الوطني ويتحدث عن سلب أرضه، كان بعيدًا عن التوغل في المؤسسة السياسية بشكل مبالغ أو ثائر.

فلتجربته الشعرية صوغ فني وفكري واعٍ بمسألة التجريد الفني للواقع السياسي: ”الاحتلال الطويل استطاع أن يحولنا من أبناء فلسطين إلى أبناء فكرة فلسطين“.

ولمعناه الشعري أثر روحي ونفسي ظاهر:

”قاسميني تعبي يا متعبة
 إنني أحتاج صدرًا موجعًا أبكي عليه
 إن بي، مثلك، شيئًا من زجاج
 وصدور المطمئنين رخام
 نحن لا نشكو لمن أضعفنا
 قاسميني تعبي يا متعبة
 فالذي يشكو إلى الأقوى
 يُذل“.

ويأتي كتابه الثري ”رأيت رام الله“ في أقرب صورة لفلسطيني غادر ولم يُسمح له بالعودة إلا بعد ثلاثين عامًا، فكانت فلسطين جرحًا ينأى مرید عن التعامل معه بشكل مباشر في لغته وشعره، وظلت حبيسة فكرته وأحزانه الطويلة في منافيه: ”إن الأحلام تُصبح أكثر خطورة عندما تكون أحلامًا بسيطة“.

إن هذا الاختلاف الذي عاش فيه مرید لم يبعده عن أصدقائه، أصحاب القضية والانتفاض، فهو قريب جدًا من كنفاني وناجي العلي الذي كتب عن شجاعته ورسوماته القادحة في وجه الظلم الذي وقع على فلسطين، وبكى محمود درويش في غيابه، فصعد إلى الكثير من المنصات بقصائد لها وقع كبير في رثاء درويش، فقد وقف مرید أمام رحيله مدهوشًا وخاشعًا:

”فاكتب.. وتابع كيف ترسم بنتنا دبابة وأمامها ولد

يسدّ طريقها بقميصه وبنظرة العينين

لا تعجب ولا تسرح بعيدًا في خيالك:

إنها قتلتها طبعًا هل سمعت طوال هذا العمر عن دبابة تمزح؟!

فاكتب عن البنت التي رسمت لنا دبابة وأمامها ولد

سأترك رسمها يغفو ويصحو في كتابك مثل ذاكرة فهل تسمح؟“.

اليوم بعد رحيل مرید، يبدو الأمر كأنه انفراط الحبة الأخيرة من العقد أو انقضاء الفصل الأخير من الحكاية الجميلة، هو شيء يشبه أن تبقى وحيدًا بلا أصدقاء أمام الجبل الهائل من جيل المثقفين الذي مضى شريط حياتهم بشكل لا يشبهه الحاضر، ولن يشبهه المستقبل.

الجيل المثقف الذي وعى العملية السياسية وقدم معطياتها بشكل آخر من حرية الرأي والمعنى، وفهم سلطة الحياة على النفس البشرية وعرف كيف يخاتلها بالشعر والكتابة النثرية، كان مرید النفس الفلسطيني الذي نرى فيه كل أيام النضال والبقاء والأمل بالعودة، فمن للشعر بعد مرید!

ثنائي الحب

في سلسلة غياب مرید عن فلسطين، وانشغاله بالدراسة في القاهرة، كانت تُكتب له حكاية حب لا يشبهها شيء أبدًا. مرید ورضوى، نجمان سطعا في المشهد الثقافي، وفي مشهد العشاق، ونرى ذلك جليًا في شعر مرید وأدب رضوى، إذ سلطت الضوء في كتابها ”أثقل من رضوى“ على جزء كبير من حياتها الشخصية والثقافية والسياسية، وكانت شعلة هذه الأيام كما تصفها هو وجود مرید قريبًا، يهدد وجعها وألم مرضها التي ظلت تحاربه يساندها مرید، وألم الكتابة!



يقول مرید: في ظهيرة يوم 22/7 سنة 1970 أصبحنا عائلة، ضحكتهما صارت بيتي.

هذا الحب الشفاف الذي حضر في شعر مرید وروايات رضوى وأدبها، يشكل رمزًا فنيًا وأدبيًا معاصرًا وفريدًا، ولم يكن حبًا سهلًا تيسرت له أمور الدنيا، فلم تكن حياة مرید سهلة في مصر (منفاه الأول) إذ سجنته السلطات المصرية ونفته عام 1977 إثر زيارة الرئيس المصري أنور السادات لـ "إسرائيل" وظل منفياً 17 سنة عن مصر.

تذكر رضوى في سيرتها هذه السنوات المرة التي غدت الحب وكبرته ولم تمته، حيث كانت تعاني رحيله واضطرابها البقاء الوظيفي كأستاذة في جامعة عين شمس وتغريهما عن بعضهما سنوات طويلة.

تقول رضوى عن مرید: "غريب أن أبقى محتفظة بنفس النظرة إلى شخص ما طوال ثلاثين عامًا، أن يمضي الزمن وتمر السنوات وتبدل المشاهد وتبقى صورته كما قرّرت في نفسي في لقاءاتنا الأولى".

كان اللقاء الأول بينهما الذي امتد حبًا لـ 45 عامًا على سلم المكتبة المركزية في جامعة القاهرة، فقد حكّت تفاصيل هذا اللقاء بأنها انتبهت له وهي على السلم ويقرأ الشعر لأصدقائه وأعجبت به، كما تذكر أنها في حينها كانت لها محاولات في كتابة الشعر، ومنذ اللحظة التي سمعت فيها مرید، تركت كتابة الشعر!

لقد تكلم حب رضوى ومرید بولادة شاعر مصري فلسطيني، كسب الشعر والأدب وحب الأرض والقضية والعروبة من والديه، هو الشاعر تميم البرغوثي الذي كتب:

"أمي وأبوي التقوا والحر للحره

شاعر من الضفة برغوثي واسمه مرید

قالولها ده أجنبي، ما يجوزش بالمرّة

قالت لهم:

من إمتى كانت رام الله من بلاد برة

يا ناس يا أهل البلد شارياه وشاريني

من يعترض ع المحبة لما ربي يريد“.

لم يكن رحيل رضوى عاشور هيناً على مرید، ففي اليوم الذي غادرت فيه كتب مرید على مواقع التواصل الاجتماعي قائلاً: عودي يا ضحكتها! إنه يصرح بغياب وطنه الدائم، ضحكتها، وطنه الذي ضم حزنه الفلسطيني وغربته المصرية التي كان يصفها دائماً:

“ أنت جميلة كوطن محرر.. وأنا متعب كوطن محتل“.

اليوم بغياب مرید البرغوثي، تجتمع روحان عاشقتان، عرفتا معنى الغربة والتشظي كما عرفتا معنى العائلة والبيت، قدمتا للأدب والعروبة الكثير من المعاني السامية والقيم النبيلة.

في الوقت الذي نقول ”رحيل“ نحن لا نصدق الفكرة، فهل يرحل حلم وشعر ومعنى مرید؟ وهل ترحل أطياف وغرناطة وضحكة رضوى؟